الحصة الخامسة

فلسفة التربية عند الصوفية

لفلسفة التربية الصوفية أصول ومفاهيم وقيم وأهداف نبيلة ولها مرجعية مستمدة من التراث الديني والروحي للإسلام ، كما يقول الإمام ابن خلدون :" هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة ، وأصلها أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، طريقة الحق والهداية وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل إليه الجمهور من لذة ومال وجاه ..."

وبناء على هذا التعريف العام لابن خلدون تتوضح الأسس التي يقوم عليها تراث التصوف الروحي والحضاري ، وتتحدد مفاهيمها وقيمها ، وتستثمر الوسائل والإمكانات المتاحة في سبيل تحقيق الهدف المنشود ، وهو إعادة بناء قيم الأخوة والتضامن والتعاون على البر والتقوى والابتعاد عن الإثم والعدوان ، وتقديمها بشكل نظام تربوي وسلوكي هدفه إصلاح المجتمع

وتشير الدراسات إلى أن العلماء الأوائل والحسن البصري من أبرزهم رجعوا إلى قيم التقوى والزهد والورع والعمل الصالح المستمدة من القرآن والسنة وأخذوا منها مواد وآليات بنواب ها النواة الأولى لفلسفتهم التربوية الصوفية التي عالجوا بها الأزمات والصراعات المدمرة في المجتمع ، وأقاموا على أسسها منظومة تربوية تربى فيها الرعيل الأول من المتصوفة ، وانتشروا تدريجيا في الأرض لتعليم مبادئهم الفلسفية والسلوكية .

مقومات فلسفة التربية الروحية للحسن البصري : .

بناها على أساس التراث المثالي للإسلام في عصر النبوة والخلافة الراشدة وكان يسعى إلى إحيائه ، وكان يوضح الحقائق الروحية للقرآن والسنة ، ويصف لهم حياة الصحابة ورسولهم الكريم .

فمن أقواله : (العلم خير تراث ، والأدب أزين خدين _خير صديق) والتقوى خير زاد والعبادة أربح بضاعة والعقل خير واقد ، وحسن الخلق خير قرين، والحلم خير وزير ، والقناعة أفضل غنى ، والتوفيق خير معين ، وذكر الموت أوعظ واعظ) فقام على نشر هذه القيم وترسيخها وتعميمها مسخرا كل إمكاناته المادية والعلمية والفكرية .

مالك ابن دينار : وكان قوام فلسفته التربوية الذكر وكثرة قراءة القرآن الكريم والصدق والبعد عن الشهوات .فكان يقول : (لم يبق من روح الدنيا إلا ثلاثة : لقاء الإخوان ، والتهجد بالقرآن ، وبيت خال يذكر الله فيه) .

ظروف تدوين مصطلحات فلسفة التربية الصوفية وتحديد مفاهيمها :

لقد بين الإمام ابن خلدون ظروف تدوين المصطلحات والمفاهيم المذكورة موضحا أن لهم آدابا مخصوصة بهم ، واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم تتعلق بالمجاهدة ومحاسبة النفس عليها والأذواق والمواجيد وكيفية الترقي من ذوق إلى ذوق ، وكان متداولا عن طريق الرواية الشفوية قبل الوصول إلى مرحلة تدوين العلوم ، فكتب بعضهم في الورع ، ومحاسبة النفس ، كالقشيري في الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف المعارف ، والغزالي في الإحياء ، وأبوطالب المكي في قوت القلوب ، وصار علم التصوف علما مدونا بعد أن كانت الطريقة عبادة فقط ، فأسهم هؤلاء المتخصصون في التصوف في التعريف به وفي بلورة مفاهيمه وتحديد مرجعياته .

حاجة المريد إلى الشيخ :له كفاءة وخبرة يقتدى به ليهديه ويعالجه ويطبب نفسه .

رتبة المربي الشيخ وعلاقته بالمريد : من أعلى االمراتب لأنه يحبب الله إلى عباده ويحبب العباد إلى الله ورتبته نيابة النبوة في الدعوة إلى الله .

انحرافات وتجاوزات في تطبيقات فلسفة التربية :

هناك أدعياء العلم ومشاهدة الحق يدعي لنفسه الوصول إلى الحق وأنه من المقربين وهو عند الله من الفجار المنافقين يتبع هواه . وهناك من ادعى المقامات من الزهد والتوكل والرضى والحب من غير وقوف على حقيقة هذه المقامات ، ويدعي حب الله قبل معرفته ثم لا يخلو عن مقارفة ما يكرهه الله موثرا هواه على أمر الله ،أو يدعي التوكل والقناعة فيخوض البوادي من غير زاد ليصحح دعوى التوكل .

مفهوم المقام : حسب تعريف القشيري من الإقامة أي ما يتحقق به العبد بنزوله فيه ، أو باكتسابه له من الآداب فمقام كل أحد هو موضع إقامته في ذلك الأمر الذي زاول الرياضة والمجاهدة من أجل الوصول إليه . [الرسالة ص 204] وعرفه السراج : " هو مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله عز وجل " [اللمع ص 65]

مفهوم الحال : السراج : وأما معنى الأحوال فهو ما يحل بالقلوب أوتحل به القلوب من صفاء الأذكار " وعرفه الجنيد :" الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم "

القشيري : معنى يرد على القلب ، من غير تعهد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم من طرب أوحزن أو بسط ، أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هبّة أو احتياج .

العلاقة بين الحال والمقام :

القشيري :" الأحوال مواهب ، والمقامات مكاسب "

وأضاف :" بأن الأحوال تأتي من عين الجواد والمقامات تحصل ببذل المجهود وصاحب الحال ممكن في مقامه وصاحب المقام مترقٍّ عن حاله .

_ أن الحال متحول والمقام ثابت مستقر

وأكد بعضهم أن هناك تشابها بينهم .